تخطيط المدينة العراقية القديمة - الشكل الخارجي

د. محمد طه محمد الاعظمي
كلية الآداب – جامعة بغداد
قسم الآثار

يكاد أن يتفق أغلب الباحثين في حقل الجغرافية الحضرية على ان هناك مجموعة من العوامل المتداخلة والمتشابكة فيما بينها أسهمت بدفع عجلة التطور نحو نشوء وتمصير المدن . وكان لكل من هؤلاء الباحثين وجهة نظره الخاصة بترجيح عامل على آخر ، وبشكل عام فأن من المتفق عليه أن المدينة والحياة المدنية ما هي الا سلوك ومنهج جديد في حياة الفرد يتوجب عليه فيها الألتزام بمظاهر وتقاليد وسلوكيات أجتماعية لم يألفها في السابق من شأنها أن تحدد علاقة الفرد ببيئته من جهة ، وبينه وبين بقية المستوطنين من جهة أخرى ، لتكون المحصلة النهائية – ولو بشكل نظري – أتفاق الجميع على صيغة من التعامل بما يخدم مصلحة الفرد والمجتمع على حد سواء .

ومن تلك المتغيرات السلوكية والمظاهر الاجتماعية الجديدة نذكر على سبيل المثال زيادة نسبة السكان قياساً الى المساحة العامة للموقع ثم تنوع الحرف والصناعات فيها والتخصص في العمل واستغلال فائض الإنتاج في التجارة والأهتمام بتشييد المباني التذكارية من قصور ومبان إدارية ومعابد ونصب ، وابتكار وسائل لتدوين المعارف والعلوم وضبط التقاويم مع إمكانية نقلها من جيل الى آخر . ثم الالتزام بنظم وقوانين تسري على الجميع ، وابتكار مختلف الوسائل للمحافظة على الأمن والاستقرار فيها من مؤسسات أدارية وتشريعية أو بناء الأسوار والاستحكامات الدفاعية حولها[١] .

وإذا ما حاولنا تطبيق هذه المعايير والمتغيرات على المستوطنات السكنية في بلاد وادي الرافدين وبالتحديد عند المناطق الجنوبية منه في العصر الشبيه

بالكتابي (عصر الوركاء ، جمدة نصر وفجر السلالات الأول ٣٥٠٠-٢٨٠٠ ق.م لوجدنا أن عدداً من المستوطنات السكنية أخذت تتبلور فيها مظاهر حضرية جديدة لم تكن معروفة في السابق ، نذكر منها ازدياد مساحة تلك المستوطنات وضمها لمجاميع بشرية كثيفة لم تكن تعتمد في اقتصادياتها وأدامة حياتها على الأنتاج الزراعي فقط بل تعدتها نحو الأنتاج الحرفي وبعض الصناعات وأعمال التعدين والطرق على المعادن والتجارة .

كما ضمت تلك المستوطنات بيوتاً سكنية ذات تصاميم وأشكال تدل على وعي وتخطيط مسبق في تحديد وظيفة كل مرفق فيها كما شيدت فيها القصور الواسعة والمعابد والزقورات . وأخترقت المستوطن شوارع وأزقة بأمتدادات وأتساعات مختلفة قامت على جوانبها البيوت وورش العمل والحوانيت والمزارات. ومن المظاهر الحضرية الأخرى التي نصادفها في هذه المرحلة أبتكار الكتابة وشيوع أستخدام الأختام الاسطوانية وهما يهدفان بالدرجة الاساس لخدمة المصالح الاقتصادية التي تشعبت وتطورت أهدافها وأساليبها . كما نجد أن السلطة السياسية – الدينية قد حلت بمؤسساتها محل القرية ومشايخها في حفظ النظام وتسيير دفة البلاد ، وأبتكرت وسائل وأساليب مختلفة لحماية المستوطنات السكنية والقرى والحقول الزراعية التابعة لها فأستخدمت اسلحة ونظم عسكرية جديدة كما بذلت عناية فائقة بتشييد الاستحكامات الدفاعية بأنماطها المختلفة مثل حفر الخنادق وبناء الاسوار والأبراج والتي يمكن أن نستشف من خلالها على شيوع ظاهرة الأنفصال والاستقلال السياسي وتكوين سلالات حاكمة خاصة بكل مدينة أو أقليم(٢) .

يبدو لنا من أستعراض أهم المظاهر السلوكية والمتغيرات الاجتماعية – الاقتصادية التي حلت في العصر الشبيه بالكتابي ، أن ظهور المدينة العراقية القديمة لم يكن وليد المصادفة أو حدثاً أعتيادياً مر بين ليلة وضحاها ومظهراً اجتماعياً اقتبسته الحضارة العراقية ممن جاورها من الأمم والشعوب ، وأنما كان نتيجة حتمية وصلت اليها الحضارة العراقية القديمة بعد سلسلة متصلة من

التطورات الاجتماعية وفي أشكال العلاقات وأنماط السلوك العام للأفراد وتبلـــور الأفكار السياسية والدينية فضلاً عن التبدلات والتطورات التقنية الصناعيـــة التـــي استمرت من دون انقطاع منذ المراحل الأولى للقرى الزراعيـــة المبكـــرة ولآلاف السنين وصولاً الى العصر الشبيه بالكتابي بحدود منتصف الألف الرابع ق.م .

لقد مهدت تلك التطورات الثقافية والاقتصاديـــة وتراكـــم الخـــبرات عـــبر العصور ، مهدت الطريق لنمط جديد من المستوطنات يمكن أن نطلق عليها بكـــل تأكيد تسمية (مدن) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ومن أساليب ونظم حضرية – مدنية جديدة .

اختيار مواقع المدن والعوامل المؤثرة عليها :

قبل أن نفصل بالقول في تحديد أشكال المدن العراقية القديمة لابد لنا من أن نعرج على أهم العوامل المؤثرة في اختيار مواقع المدن لما لهذا الموضـــوع مـــن أهمية حيوية وأثر لايمكن التغاضي عنه في تحديد شكل المدينة وأمتداداتها . وعلى العموم فأن هناك عوامل كثيرة أخذت دورها بشكل أو بآخر في اختيـــار مواقـــع المدن وفي تفضيل منطقة على أخرى . ولقد أسهب مخططـــو المـــدن وعلمـــاء الجغرافية البشرية في تعداد وشرح العوامل والمسببات المؤثرة في اختيار مواقـــع المدن وفي توضيح العلاقة بين ذلك الموقع وأهمية المدينة أو وظيفتها والغاية التي أنشأت من أجلها ، وبشكل عام ودون الخوض في التفاصيل الدقيقة لكل من تلـــك العوامل أو أن نقلل من أهميتها فأن مما لاشك فيه – كما يبدو لنا – أن في مقدمـــة العوامل المؤثرة على اختيار موقع المدينة مهما كان أهميتها ووظيفتها هو اختيـــار الموقع الجغرافي المتميز الذي لم يكن اختياره محض مصادفة بل لأفضليته علـــى سواه من الموقع الأخرى من الناحية الطبوغرافية وفي توافر مستـــتلزمات أدامـــه الحياة اليومية للمستوطنين فيه[٣]. وتتضح أهمية طبوغرافية الموقع بإحاطته بعـــدد من القرى الزراعية ترفده على الدوام بما يحتاج اليه من مؤنة وأيـــدي عاملـــة أو مستوطنين جدد . هذا مع ضرورة أن تكون هناك إمكانية الاتصال والانتقال بيـــن

شكل وامتداد المدن العراقية القديمة والعوامل المؤثرة عليها :

مما سبق من حديث عن اختيار موقع المدن فأن ذلك يمكن أن يوصلنا الى نتيجة أو فرضية هي الأساس أو المحور الذي يدور حوله بحثنا هذا وهو أن موقع المدينة الذي يتم اختياره ليتلاءم مع تلك المواصفات البيئية والطبيعية كان له أكبر الأثر على تحديد امتدادات السكن فيها وفي نموها وتوسعها وفي أختيار نمط أستحكاماتها وتحصيناتها وبالتالي في تحديد شكلها ومظهرها الخارجي العام ، إذ تشكل المرتفعات أو مجاري المياه الحدود الطبيعية المنيعة التي تحدد امتدادات المدينة وتحول دون توسعها في جهة على حساب الجهات الأخرى . وإذا ما قدمنا العامل الطبغرافي – الطبيعي فأننا لا نبخس من أهمية عوامل أخرى كثيرة كان لها شأنها في تحديد الشكل الخارجي للمدن العراقية القديمة ومن ذلك نوع العلاقات والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية لسكان المدينة ، ومدى نفوذ وقوة السلطة الدينية – السياسية فيها ، هذا فضلاً عن مكانة المدينة ذاتها دينياً أو سياسياً أو أقتصادياً بين المدن والمستوطنات المحيطة بها . كما لا ينكر أثر الأهداف والمقاصد التي شيدت المدينة من أجلها ودورها هي الأخرى في التحكم بشكل المدينة وبتخطيطها وتوزيع النسيج الحضري فيها ، وسوف نحاول ما أمكن من خلال دراستنا لأشكال المدن العراقية القديمة أن نستعرض أهم العوامل والمسببات التي ساهمت في أختيار وتحديد ذلك الشكل أو النمط من التخطيط الخارجي .

ومن أشكال المدن العراقية القديمة ما كان يمتد بأتجاهات عشوائية غير محدد بشكل هندسي معين مثل مدينة كيش (تل الاميمر) ومدينة لكش (تل الهبة) واشنونا (تل أسمر) وموقع مدينة تل طايه وهناك مدينة توتب (خفاجي) من عصر فجر السلالات التي يحيط بها سور خارجي غير منتظم بأمتداده الطولي وتقعر أحد أضلاعه الطويلة وتراجعه الى الخلف وبخاصة في الجزء الغربي منه بحيث يقرب شكلها من حبة الفاصوليا[٤] .

كذلك يمكن أن نصنف شكل مدينة نينوى من العصر الآشوري الحديث في ضمن صنف التخطيط غير المنتظم . يحيط بالمدينة سور مزدوج بطول كلي

يقرب من ١٢ كم يتوزع على أربعة أضلاع مختلفة الأطوال يقرب شكلها من شبه منحرف غير منتظم بمساحة تقرب من ٨٣٢٥ كم٢ . ويبدو أن المخطط الخارجي لمدينة نينوى قد أصبح بهذا الشكل ليتلائم امتداد سورها مع ما يحيط بها من تضاريس أرضية ومن مجاري المياه والوديان ، ويأتي في مقدمة تلك التضاريس الأرضية التي أستغلت لتكون الخط الدفاعي الرئيسي للمدينة هو أمتداد نهر دجلة من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي كذلك يحدها بعض الوديان الطبيعية التي تمتد من الشمال الى الجنوب الشرقي(٥).

أما مخطط مدينة بابل في العصر البابلي الحديث ولاسيما بعد توسعها وأنشاء سورها الخارجي الشرقي في زمن حكم الملك نبوخذنصر فقد كان غير ملتزم بشكل هندسي معين بل يمتد سورها الشرقي الخارجي بأتجاهات متباينة ليتلاءم – على الأغلب – مع تقاطع وامتداد قنوات الري الرئيسية التي كانت تخترق المنطقة والتي تصلها بمنطقة كيش القريبة منها وبعض القرى والمدن الأخرى فضلاً عن محاولة استغلال طبيعة الأرض المحيطة بالمدينة وتباين ارتفاعاتها ومحاولة تشييد أسوارها قدر الإمكان فوق أعلى منطقة فيها بغض النظر عن الاهتمام بالشكل الخارجي للمدينة ، ولا نعتقد بأن امتداد السور الشرقي الخارجي بهذا الشكل كان لضرورة عسكرية ، وأنه يمثل أسلوباً جديداً في فن تخطيط اسوار المدن بحيث يوفر لها ذلك الأمتداد أفضل أنواع الحماية والدفاع ضد الهجمات العسكرية الخارجية .

تبلغ مساحة مدينة بابل قرابة عشرة ملايين متر مربع تمتد على جانبي نهر الفرات الذي يقسم المدينة الداخلية الى قسمين كبيرين أهمها هو القسم الشرقي حيث مركز المدينة السياسي – الديني . ويبدأ السور الخارجي للمدينة والذي يطلق عليه أسم السور الشرقي عند نهر الفرات شمال المدينة ويمتد شرقاً لمسافة قصيرة بعدها ينحرف الى الجنوب الشرقي لمسافة تمتد نحو ٤٤٠م تقريباً ثم ينحرف مرة أخرى بزاوية قائمة نحو الجنوب الغربي لينتهي عند نهر الفرات جنوب المدينة بطول أجمالي يصل إلى قرابة ١٨-٢٠ كم وهو من نمط الأسوار المزدوجة يتألف

من جدارين بني الجدار الداخلي منها باللبن بينما بني الجدار الخارجي من الأجر بعرض أجمالي يقرب من ٢٧م[٦] . أما الجانب الغربي من المدينة فلم يشيد لها سور خارجي على غرار السور الشرقي بل أكتفي بما موجود من سورها الداخلي.

ومع وجود هذا النمط من التخطيط الحضري فأن الغالب على أشكال المدن العراقية القديمة ألتزامها بمخططات هندسية منتظمة وشبه منتظمة الشائع منها نمط التخطيط الرباعي الأضلاع يقرب من مستطيل أو مربع غير تام التناظر، كما نجد ذلك في مدن مثل أداب (بسمايا) من عصر فجر السلالات وهي محاطه بسور خارجي ، من جهات أربع مما أحال شكلها الخارجي الى مستطيل كبير بطول ١٩٩٥ م وبعرض يقرب من ٨٤٠م .

أما مدينة سبار (أبو حبه) فقد كانت في العصر البابلي القديم ذات مخطط خارجي مستطيل الشكل تمتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي بطول ١٢٠٠ م تقريباً وعرض ٨٠٠ م تقريباً . أما مدينة كارتوكلتي ننورتا (تلول العقر) من العصر الآشوري الوسيط فهي واحدة من نماذج المدن الجديدة التي بنيت بأمر ملكي من لدن توكلتي ننورتا الأول (١٣٠٧-١٢٧٥ ق.م) فهي والحالة هذه تختلف عن غيرها من المدن التي نمت وتوسعت عن مستوطن أو قرية كبيرة ذات أمتدادات وتخطيطات مسبقة . فهي إذن مشيدة على وفق مخطط هندسي نابع من فكر وتخطيط مدني منظم يتلاءم ونمط العقلية الآشورية وطبيعة الحياة السياسية الدينية التي كانت سائدة آنذاك ، فكان المخطط العام للمدينة أقرب الى أن تكون مربعة الشكل قليلة الاستطالة صغيرة المساحة نسبياً بطول بلغ ٨٠٠ م تقريباً وعرض يصل الى قرابة ٧٠٠ م تمتد بموازاة نهر دجلة من الشمال الى الجنوب ويؤلف النهر حدها الغربي الذي جعلها بمنأى عن المدن والعواصم الآشورية الأخرى . شيد في وسطها سوراً داخلياً يقسمها طوليا يفصل بين المركز السياسي – الديني للمدينة وبين أحيائها السكنية[٧] ، وجعل منها حصناً منيعاً للملك توكلتي ننورتا الأول وللخاصة من أفراد عائلته وحاشيته .

ومن العواصم الآشورية الاخرى التي بنيت على وفق مخطط أقرب الى أن تكون مربعة الشكل ذات استطالة قليلة مدينة كالخو (نمرود) من العصر الآشوري الحديث في زمن حكم الملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ق.م) وهي بمساحة تقترب من ٣,٨ كم مربع ، تمتد من الشرق الى الغرب بطول يقرب من ٢٠٠٠م وبعرض يصل الى حدود ١٥٠٠ م[٨] .

أما مدينة دور شروكين (خرسباد) فهي من المدن الجديدة التي شيدت بإرادة ملكية من لدن سرجون الآشوري (٧٢١-٧٠٥ق.م) فوق أرض بكر على وفق مخطط يقرب كثيراً من مخطط مدينة كارتوكلتي ننورتا يقرب شكلها من مربع غير تام التناظر تتجه زواياها نحو الجهات الأربع يقرب محيطها من ٧ كم بطول يقرب من ١٧٦٠ م يمتد من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي وعرض يتراوح بين ١٦٨٥-١٧٥٠ م تقريباً[٩] ، وأنشيء لها سوراً داخلياً يلف حول المركز السياسي – الديني للمدينة ويعزلها عن باقي أحيائها السكنية بشكل لاحظنا ما يشابهه في كارتوكلتي ننورتا . كذلك نذكر من المدن الأخرى المشيدة بمخطط هندسي رباعي الأضلاع أقرب الى الشكل المربع هي مدينة بورسبا (برس نمرود) من العصر البابلي الحديث .

ومن الأشكال الأخرى للمدن العراقية القديمة ما كان بمخطط يقرب كثيراً الى شكل مثلث ومنها مدينة سبار أمنانوم (تل الدير) بشكلها الذي يقرب من مثلث كبير تتجه قمته نحو الجنوب بينما تتجه قاعدته الى الشمال ، وسور المدينة بطول ٦٨٠ م للضلع الجنوبي الشرقي وبطول يقرب من ١٠٥٠ م لكلا الضلعين الجنوبي الغربي وللضلع الممتد بين الزاوية الشرقية والغربية والذي لم يبق منه شيء في الوقت الحاضر[١٠] ، وقد ثبت من الدراسات الأخيرة أن المدينة كانت مقامة فوق رابيه قليلة الأرتفاع كانت في الأصل جزيرة رملية تتوسط أحد روافد نهر الفرات ويبدو أن شكل وأمتداد الأرض التي أقيمت فوقها كان له أكبر الأثر في تحديد أمتدادات أسوارها بهذا الشكل وفي أختيار الأماكن الصالحة للسكن فيها[١١] .

أما مدينة آشور فقد أصبحت بعد تجديد أسوارها من لدن شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق.م) ذات مخطط أقرب ما يكون الى مثلث كبير تتجه قاعدته الى الشمال بينما تمتد قمته نحو الجنوب بسافة تقرب من ٦٧٥٠ كم . ويتوضح أثر التضاريس الطبيعية التي أقيمت عليها المدينة في تحديد رقعة الأرض الصالحة للسكن ثم في التحكم بأمتداد سورها الذي يحيط بها من جهتها الغربية والجنوبية وجعلها بهذا الشكل .

أقيمت مدينة آشور على الضفة الغربية لنهر دجلة التي يحدها من جهتها الشرقية وبشكل مستقيم تقريباً من الشمال الى الجنوب بطول ١٥٠٠ م تقريباً بينما يحيط بها من جهة الشمال مجرىً مائياً آخر كان في السابق مجرى نهر دجلة قبل أن يغير مجراه الى الشرق كما يحدها من الشمال مرتفعات طبيعية صخرية ذات أنحدار حاد شكلت سوراً منيعاً يحيط بالجانب الشمالي منها بينما يحد المدينة من جهتها الغربية هضبة صخرية قليلة الأرتفاع هي أمتداد للأراضي المتموجة تتميز بأرتفاعاتها من جهتها الشمالية ثم تنخفض تدريجياً كلما أتجهت نحو جنوبي المدينة لتصبح هناك سهلاً فسيحاً تتخلله بعض الوديان[١٢] .

ومن أنواع المخططات الأخرى للمدن العراقية القديمة ما كان ذا مخطط بيضوي أو قريب من الشكل الدائري . ولنا في مدينة أور من سلالة أور الثالثة خير مثال على هذا النوع من المخططات المدنية البيضوية الشكل ، فالمدينة محاطة بسور شيد في زمن حكم أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٩٥ق.م) يدور حول المدينة بمحيط بلغ طول قرابة ٣ كم . تمتد المدينة من الشمال الى الجنوب بطول ١٢٠٠ م تقريباً ويبلغ اقصى عرض لها حوالي ٨٠٠م.

المدينة مشيدة على مرتفع من الارض يعلو مستوى السهل المجاور له بحدود ٦-٨م تقريباً ويصل في بعض المناطق منها لأرتفاع ١٤م تقريباً ويرجع هذا الارتفاع لعوامل عديدة منها الترسبات الغرينية التي كان يلقي بها نهر الفرات في فترات فيضاناته والذي كون منها نواة لجزيرة طبيعية مرتفعة وسط السهل الرسوبي . كذلك كان لتتابع السكن المتواصل في المدينة منذ الألف الرابع

ق.م أثره الآخر في زيادة ارتفاع مستوى سطح المدينة[١٣] . ويبدو من نتائج التنقيبات في سور المدينة أن الملك أورنمو قد أستغل بشكل أمثل رقعة الأرض المرتفعة هذه وأختارها لتكون عاصمة المملكة وذلك لعلمه ما للأرض المرتفعة من مردودات إيجابية بيئية لايمكن الاستهانه بها وسط الأرض السهلية المنخفضة فهي وقبل كل شيء توفر له حماية طبيعية ضد خطر الفيضانات والسيول والتي كانت الشغل الشاغل لسكان جنوب العراق ومع إنشاء استحكاماتها الدفاعية من اسوار وأبراج فأنها تصبح أكثر منعة وقوة من غيرها من المستوطنات. هذا فضلاً عما يقدمه ارتفاع الأرض والمستويات البنائية للمستوطنات من شعور بالسمو والسيطرة على ما يجاورها من المستوطنات، ومن أجل أن يستغل أقصى ما يمكن من مساحة الأرض فقد عمد الى جعل سورها يحيط بالحواف الخارجية لتلك الرقعة المرتفعة من الأرض من دون الالتفات الى ما يمكن أن يكون عليه الشكل الخارجي للمدينة ، هذا وقد أظهرت نتائج التنقيبات فيها أن أول مراحل البناء كان بتسوية حواف (مصطبة المدينة) وقطعها عمودياً لتتلائم وتتكيف مع أرتفاع بدن السور المشيد لصقها .

ومن المخططات الاخرى للمدن العراقية القديمة نعرض لشكل ومخطط مدينة دوركوريكالزو (عكركوف) من العصر البابلي الوسيط التي أسسها الملك كوريكالزو الأول بحدود ١٤٠٠ ق.م ، وهي من المدن التي يمكن أن نطلق عليها تسمية المدن الطولية – الشريطية . ومع أن مخططها العام لم يلتزم بشكل هندسي منتظم الا أن أمتدادها الطولي هذا جعل منها نموذجاً فريداً لأشكال المدن العراقية القديمة .

تمتد المدينة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي بطول ٢٦٢٠ م تقريباً وبعرض يتراوح بين ٣٠٠ م في قسمها الجنوبي الشرقي و ٦٠٠ م عند وسط المدينة و ٦٤٠م في قسمها الشمالي الغربي . ويظهر أثر التضاريس الأرضية المحيطة بالمدينة بشكل واضح جلي في تحديد شكلها وأمتداداتها . فالمدينة تقع على لسان صخري مرتفع من حجر الكلس يمتد عند الطرف الجنوبي لمنخفض

أرضي طبيعي يعرف اليوم بأسم هور عكركوف بمساحته البالغة ٦٠٠ كم٢ تقريباً والذي تغمره المياه طيلة أيام السنة والذي يستمد مياهه من نهر الفرات قرب الفلوجة[١٤] . لذلك فقد كان أختيار هذه الرقعة من الأرض – اضافة الى عوامل أخرى – لتقام فوقها عاصمة جديدة أختياراً موفقا ينم عن فطنة وفكر عسكري دفاعي إذ كان موقعها المشابه لجزيرة تحيط بها المياه يوفر لها حماية طبيعية فعالة ضد أي هجوم مسلح عليها .

أما النمط الآخر من أشكال المدن العراقية فهي المدن ذات المخططات الدائرية أو القريبة من الشكل الدائري . وتنفرد مدينة الوركاء من بين المدن العراقية القديمة بهذا النمط من التخطيط الحضري . يرجع الاستيطان في مدينة الوركاء الى عصر العبيد في نهايات الألف الخامس ق.م حيث كانت قرية صغيرة يقطنها عدد من الصيادين وبعض المزارعين البدائيين الذين يسكنون في أكواخ من الحصران والقصب فوق مرتفعات طبيعية وأصطناعية عند ضفاف الأهوار والمنخفضات المائية جنوب العراق وقد تطور المستوطن بمرور الزمن واصبحت واحدة من المدن العراقية المهمة في عصر الوركاء ثم أحيطت بسورين – داخلي وخارجي – في عصر فجر السلالات وقد أخذت المدينة شكلها النهائي شبه الدائري بسبب نمط امتداد سورها هذا – يحيط بمدينة أوروك (الوركاء) سورين داخلي وخارجي شيد السور الداخلي للمدينة بحجم أكبر وأكثر أتقاناً من السور الخارجي إذ بلغ سمكه قرابة ٤–٥ م ، بني لصق واجهته الخارجية عدد من الطلعات أو الأبراج الدفاعية أما السور الخارجي فقد شيد على بعد ١٠م من الأول وهو بسمك ٣م تقريباً . وقد بني السوران باللبن المستوي – المحدب من قياسات مختلفة . بلغ الطول الكلي للسور قرابة ٩,٥ كم يحيط بمساحة من الأرض تقرب من ٥ كم٢[١٥] وكان نهر الفرات يحف بالمدينة في سالف عهدها من جهتها الشمالية حيث لايزال مجراه القديم بادياً على سطح الأرض يعرف حالياً بأسم شط النيل المندثر ، يبعد عنها اليوم نحو ١٨ كم ، ومن المرجح – استناداً الى

النصوص المسمارية – فقد كانت هناك قناة مائية كبيرة تخترق المدينة تستمد مياهها من نهر الفرات .

ويبدو لنا أن مخطط مدينة أوروك (الوركاء) بشكلها شبه الدائري لم يكن عن قصد أو تخطيط مسبق يعي أهمية هذا النوع من المخططات المدنية وما يقدمه الشكل الدائري من فوائد اقتصادية عند بنائه وإمكانيات عسكرية دفاعية للمدينة بقدر ما هو التزام من لدن مشيدي السور بضرورة أحاطه أكبر مساحة ممكنة من رقعة الأرض الصالحه للسكن حول مركز المدينة بعد توسعها ونموها في عصر الوركاء وفجر السلالات والتي كانت كما نظن بمواقع وارتفاعات تجعلها بمنأى عن خطر فيضانات نهر الفرات والمسطحات المائية التي كانت تحيط بها ، عاملين جهدهم على أستغلال نمط التضاريس الطبيعية المحيطة بالمدينة وجعل سورها يمتد بموازاة الأراضي المرتفعة تلك دون الالتفات الى ما سيكون عليه الشكل الخارجي للمدينة .

ومما تجدر الاشارة اليه أن بعض النصوص المسمارية الخاصة بمسائل رياضية تعود الى العصر البابلي القديم قد أشارت ضمناً الى وجود مستوطنات سكنية ذات مخططات دائرية الشكل محاطة بسور أو سورين وخندق دائري أيضاً. كذلك عثر على لوح مسماري يرجع زمنه الى الألف الثاني ق.م عثر عليه في مدينة نوزي (يوركان تبه) عليه خارطة لبعض المستوطنات المدنية والقروية ذات مخططات دائرية الشكل . ومع دلالات تلك النصوص وما تشير اليه من شيوع مثل هذه المخططات المدنية الدائرية فأن التفسير المحتمل – كما نظن – يرجع بالدرجة الأساس الى أن تلك المستوطنات كانت قائمة فوق تلول ومرتفعات طبيعية كما هو واضح في خارطة مدينة نوزي التي تصور منطقة ذات تضاريس أرضية مرتفعة وفيها سلسلتان جبليتان عاليتان كذلك فأنه من المحتمل أيضاً أن تلك المرتفعات قد نشأت بفعل تتابع السكن فوقها طبقة أثر أخرى – كما هو الحال في جميع التلول الأثرية – وكما هو معروف فأن أغلب قمم التلول والمرتفعات الطبيعية والاصطناعية تكون ذات مقطع دائري أو شبه دائري يجعل السكن فوقها

محدداً بحوافها الخارجية ولم تكن أشكالها الدائرية تلك بفعل وعي تخطيطي مدرك لأهمية الشكل الدائري أو بفعل دراسة مسبقة تهدف الى انشاء مستوطنات دائرية الشكل أو شبه دائرية ، بقدر ما هي استغلال ذكي لطبيعة الموقع وما يحيط به من تضاريس أرضية متباينة حاولوا الاستفادة منها بشكل أمثل لإنشاء مستوطنات صالحة للسكن أمينة مستحكمة ضد الأخطار والكوارث الطبيعية والبشرية .

من خلال أستعراضنا لأشكال ومخططات المدن العراقية القديمة يبدو لنا أن الكثرة الغالبة عليها لم تلتزم بنمط خاص متعارف عليه في تحديد أبعادها وفي أتخاذ شكل خارجي ذو مخطط هندسي أو غير هندسي معين لها . وعلى العموم فأن ما أستعرضناه من تلك الأشكال ، عدا ما كان منها بمخطط خارجي رباعي الأضلاع أو قريب من الشكل المربع والتي سنتعرض لها لاحقاً ، نقول أن أشكال المدن تلك والامتدادات المتباينة لأسوارها لم يكن الغرض منها الحصول على نمط أو شكل هندسي بحد ذاته وفق تصورات هندسية خاصة بقدر ما هو محاولة للاستفادة بأقصى حد ممكن من طبيعة الارض المحيطة بالمدينة وأستغلال المرتفعات أو مجاري المياه من أهوار ومستنقعات لتكون خطها الدفاعي الأول الذي تعتمد عليه في حمايتها من أخطار الكوارث البيئية والتي يأتي في مقدمتها خطر السيول وفيضانات نهري دجلة والفرات أو القنوات الكبيرة المتفرعة منها حيث تقع على أمتداداتها أغلب أن لم تكن جميع المدن العراقية القديمة ، ثم في الدفاع عنها ضد الهجمات والغارات البشرية من المدن والمستوطنات المجاورة أو البعيدة عنها ، ثم بناء الاستحكامات الدفاعية الأخرى من أسوار وخنادق وأبراج بما يتلائم وأمتدادات تلك التضاريس ، بالدرجة الاساس وبما يعزز من قدراتها الدفاعية ومحاولة حماية المدينة وتحكيم جميع جوانبها بغض النظر عما سيكون عليه الشكل الخارجي للمدينة .

أما فيما يخص النمط الآخر من أشكال المدن ، فأن التنقيبات الأثرية قد أظهرت أن عدداً من المدن العراقية القديمة كانت بمخططات خارجية رباعية الأضلاع . وقوام هذا النوع من المستوطنات يعتمد على إحاطة المدينة بسور

خارجي يمتد باستقامة واضحة ثم ينحني بزوايا قائمة ليحيط بالمدينة من جوانب أربعة بحيث يبدو في نهاية المطاف بشكل رباعي الأضلاع ذو استطالة قليلة اقرب الى مربع غير تام التناظر .

ويبدو لنا أن ذلك النوع من المخططات المدنية كان الشكل المفضل لتصميم كثير من المدن العراقية القديمة ويتجلى ذلك بشكل واضح في تخطيط المدن المشيدة "حديثاً" على وفق أرادات ملكية فوق أرض بكر وليست من تلك المدن المتطورة عن قرية موسعة متقيدة بأمتداداتها القديمة التي كانت عليه قبل بناء أسوارها . ولو تتبعنا هنا النمط من تخطيط المدن رباعية الأضلاع ، نجد أن أقدم الأمثلة عليها ترجع الى عصر فجر السلالات في مدينة أداب (بسمايا) كما مر ذكره سابقاً ، كذلك يتدرج ضمن هذا النوع مخطط مدينة سبار في العصر البابلي القديم . ومما تجدر الاشارة اليه أن العصر البابلي القديم شهد أنشاء عدد من المدن الحدودية أو المراكز الأدارية المحصنة الواقعة على أطراف الممالك والأقاليم التزم فيها مخططوها بذات الأشكال الرباعية دلالة على أهمية هذا النوع من المخططات المدنية وتواتر أستخدامها وتفضيلها على بقية المخططات المدنية الأخرى وأنها كانت الأصل والنموذج الذي ألتزم به مصممو المدن العراقية القديمة عبر العصور.

ومن تلك المراكز الأدارية المحصنة موقع شاديوم (تل حرمل) أحدى المدن المهمة في مملكة أشنونا والتي تقع على بعد ٣٠ كم جنوب غرب العاصمة اشنونا (تل أسمر) . الموقع ذو مخطط خارجي رباعي الأضلاع غير منتظم تتجه زوايا ، نحو الجهات الأربع تتراوح أبعاد اضلاعه بين ١٤٧ م للضلع الجنوبي الشرقي و ١٣٤م للضلع الشمالي الغربي و ٩٨م للضلع الجنوبي الغربي[١٦] .

والموقع الأداري الحدودي الآخر يرجع تأريخه الى النصف الثاني من العصر البابلي القديم وهو موقع خرادوم (خربه الدينية) ، على جانب الغربي من نهر الفرات شمال مدينة عانه . والمدينة ذات مخطط مربع الشكل تقريباً طول ضلعها يبلغ قرابة ١١٥م تتجه زواياها نحو الجهات الأربع[١٧] . كذلك فقد شيدت

في العصر الآشوري الوسيط والحديث بعض المراكز الأدارية المحصنة من أجل توطيد الأمن وفرض الحماية على الطرق التجارية وتخوم مملكة آشور وكانت بمخططات خارجية رباعية الأضلاع بشكل مستطيل أو مربع غير منتظم الأضلاع ومنها مواقع تل أبراهيم بايس وتلول كولا – كندال وتل ديبكه ومواقع على نهر الفرات مثل موقع كليعه وسور جرعه وسور مهره . كذلك نذكر على سبيل المثال عدداً من المدن والحواضر الآشورية التي بنيت على وفق أرادات ملكية فوق أرض بكر التزم مصمموها باختيار النمط الرباعي الأضلاع بشكل مربع غير تام التناظر قليل الاستطالة في تصميم أشكال وأمتدادات مدنهم وحواضرهم ، وأقدم مثال على ذلك مدينة كرانا (تل الرماح) حاضرة الملك شمشي آدد الاول ١٨١٣-١٧٨١ق.م والتي كانت محاطة بسور منيع صممت إمداداته بحيث أحال الشكل الخارجي بهيئة رباعي الأضلاع غير منتظم الأبعاد يحيط بمنطقة تمتد ٥٠٠ م من الشمال الى الجنوب ومثلها تقريباً من الشرق الى الغرب . كذلك نشير الى مدن أخرى مر ذكرها آنفاً ومنها مدينة كارتوكلتي ننورتا (تلول العقر) ومدينة كالخو (نمرود) ومدينة دور شروكسين (خرسباد) ، ويبدو لنا من أستعراض نماذج هذه المدن والمراكز الأدارية والحدودية المحصنة ان التزام مصمموها بالشكل الرباعي الأضلاع – المربع أو المستطيل غير المنتظم . دلالة لاريب فيها على أهمية هذا النمط من التخطيط الحضري وأنه كان يمثل النموذج المبتكر عن قصد ودراية وتخطيط مسبق شيدت بموجبه كثير من المدن العراقية القديمة وأن بقية الأشكال والنماذج الأخرى للمدن التي استعرضناها سابقاً لم تكن – كما يبدو لنا – مشيدة وفق مخططات ونماذج محدده مسبقاً بقدر ما كان أمتدادات أسوارها الخارجية تتجه بمسارات تتلائم وتتوافق مع طبيعة تضاريس الأرض المحيطة بالمدينة واستغلالها بشكل أمثل ينم عن ذكاء وفطنة في مزاوجة وأستغلال أكثر ما يمكن من الوسائل الطبيعية والاصطناعية من أجل أن تكون تلك المدن محكمة حصينة ضد الأخطار والكوارث الطبيعية والبشرية .

المصـــادر :

١ - حول السمات العامة للمدينة والحياة المدنية فيها أنظر :

وهيبه ، عبد الفتاح محمد ، الجغرافية التاريخية بين النظريـــة والتطبيـــق ، بيروت ١٩٨٠ ، ص١٥٠-١٥٧ .

حمدان، جمال ، جغرافية المدن . القاهرة ، ص٥٤-٦٩ .

عبد الباقي، زيدان ، علم الاجتماع الحضـــري . القـــاهرة ١٩٧٤ ص٨٥ ، ١٠٩ .

Childe, G. The Urban Revolution . U.S.A. 1950 , P. 161.

Mumford, L. "University City" City Invisible U.S.A. 1960 PP. 28-29 , 31 .

٢ - يتسم عصر فجر السلالات بشـــيوع ظـــاهرة اتخـــاذ انـــواع مختلفـــة مـــن الأستحكامات الدفاعية حول المدن . عن أهمية تلك الاستحكامات وانواعـها ، أنظر :

الاعظمي، محمد طه محمد الاسوار والتحصينات الدفاعيـــة فـــي العمـــارة العراقية القديمة. رسالة دكتوراه غير منشورة ، بغداد ١٩٩٢ ، ص٤٦-٥٩.

٣ - حول أهمية الموقع الجغرافي المحصن طبيعياً ، أنظر : المصـــدر الســـابق ص١١٨-١٣٢ .

تومسن ، وارين ولويس ، ديفيد . مشكلات السكان . ترجمة راشد البدراوي، القاهرة ، ١٩٦٩ ص١٥٢/حمدان ، جمال ، المصدر السابق ، ص٦٩ .

Mumford, L. "The Natural History of Urbanization" MRCFE U.S.A. 1956 , P. 383 .

٤ - عن تنقيبات مدينة (خفاجي) توتب أنظر :

Delougaz, P. and Lloyd, S. Private Houses and Graves , OIP 88 1967 .

٥ - مظلوم ، طارق . "نينوى في ضوء التنقيبات الاثريـــة" ســـومر مجلـــد ٢٣ ص١٣٦ .

شريف ، ابراهيم الموقع الجغرافي للعراق واثره في تأريخه العام حتى الفتح الاسلامي . بغداد ، ج١ ، ص٩٨-٩٩ .

6 - Koldewey, R. The Excavation at Babylon , London , 1914 P. 1 ff .

7 - Eickhoff, T. Kar Tukulti Ninurta Berlin , 1985 , PP.22 ff.

8 - Hawkes, J. Atlas of Ancient Archaeology . London 1974 , P. 183 .

9 - Loud, G. and Altman, C. Korsabad II. OIP , 40 , 1938 , PP.17-18 .

10 - Baqir, T. "Iraq Government Sounding at Der" Sumer Vol. 1 1945 , P. 38 .

11 - DeMeyer, L. and Others, Tell Ed. Der , vol. 1 . Leuven 1971 , PP.22-26 .

١٢- حول طبغرافية مدينة اشور ، أنظر : أندريه ، فالتر استحكامات اشور . ترجمة عبد الرزاق كامل ، بغداد ١٩٨٧ ص٣٠-٣٣ ، ٢٤٢ .

13- Woolley, L. The Building of the Third Dynasty , U.E.6 1974, P. 61 .

١٤- شريف ، ابراهيم ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

باقر ، طه ، "نتائج تنقيبات الحكومة العراقية في عكركوف" . سومر مجلد ١، ١٩٤٥ ، ص٤١ .

15- Haller, A. "Die Stadtmauer" UVB 7 . Berlin, 1936 . P.43.

١٦- باقر، طه . تل حرمل (شاديوم) بغداد ١٩٥٩ ص٥ .

١٧- كينسكي ، كرستين وآخرون . "خربة الدينية قلعه على ضفاف نهر الفرات" سومر ٤٥ ، ١٩٨٧ ص٢٩١-٢٩٣ .

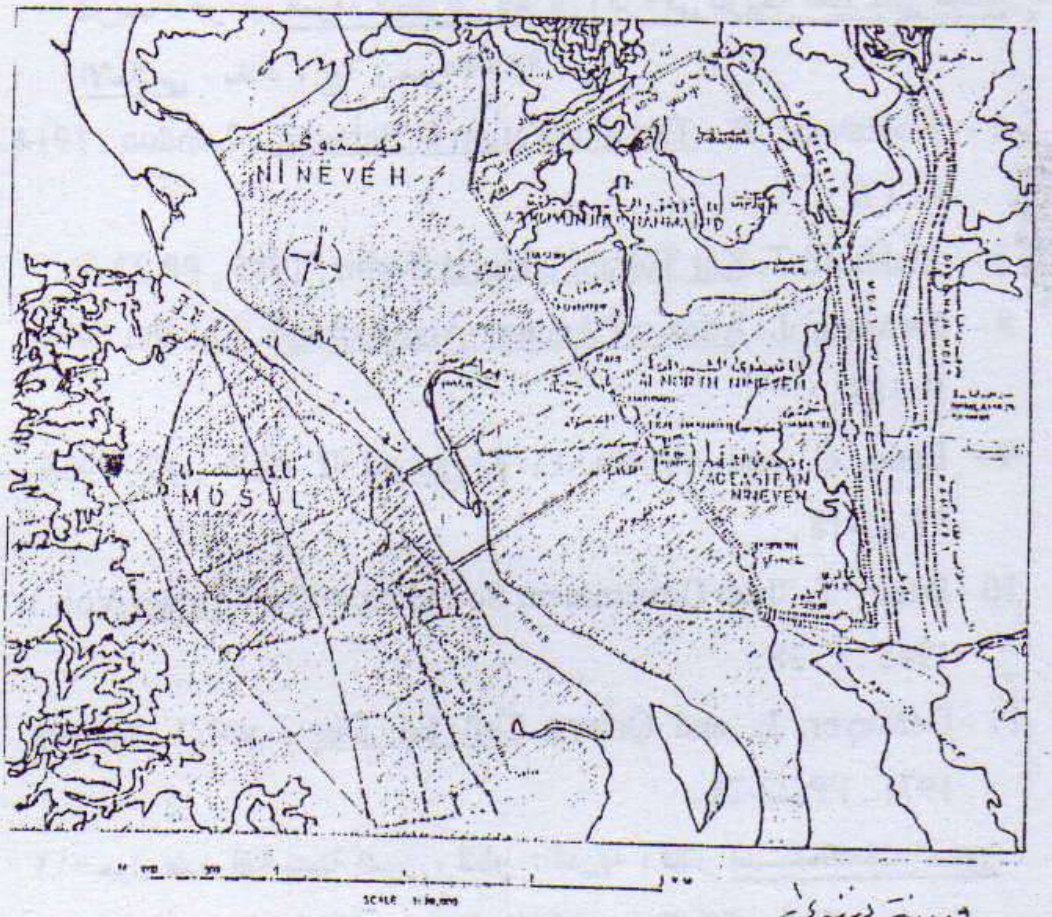

مدينة نينوى

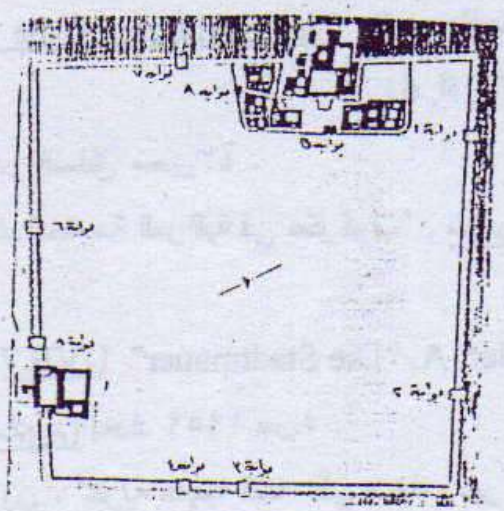

مدينة دور شروكين
(خرسباد)

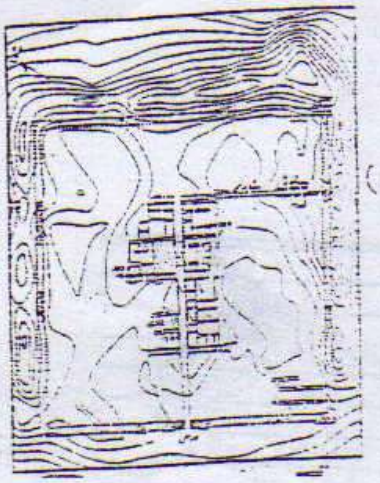

مراد رئيس (مرتفع الدسيمة)

مدينة أور (المقير)

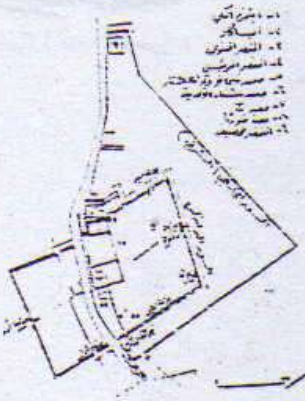

مدينة بابل

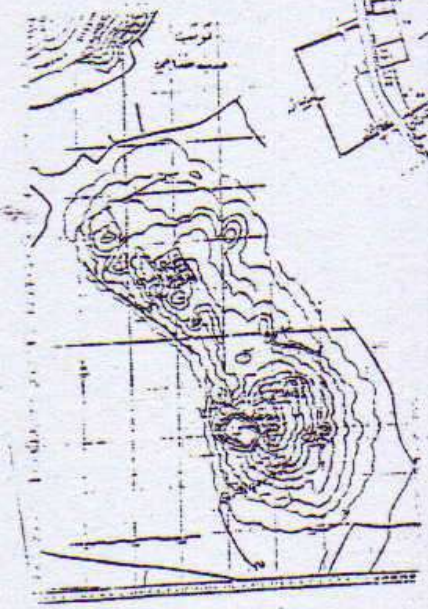

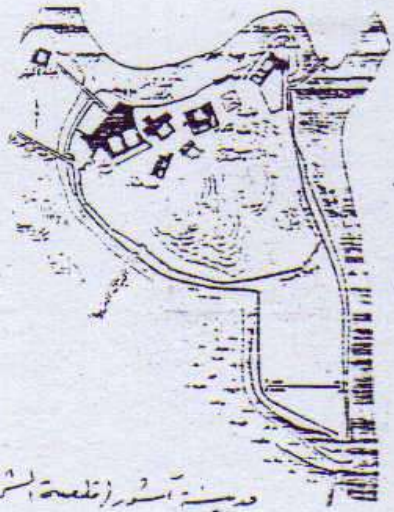

مدينة آشور (قلعة الشرقاط)